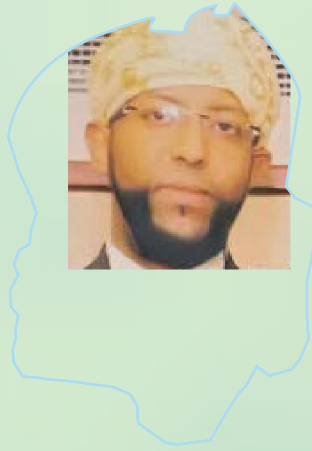
(رجال من الحبشة)

سيرة الشيخ الأستاذ المفسر عبدالله محمد حسن الطروعاوي الإريتري الأزهري (ت ٢٠١١)



بقلم : عبدالكريم عبدالله عبدالكريم
سعيد قاسم الجبرتي الأزهري

المقدمة

هذه دراسة لحياة وآثار شخصية من شخصيات بلدي تعجلت إبرازها قبل أن يعاجلني سهم القضاء أو يحول حائل دون التنفيس في البقاء، ولم أستأنها إلى كمالها فملأت كنائني قبل الرماء1.

وهي غرة أعمالي في الحبشان والمستحبشين وكبار نُزال هذا القطر والواردين أحببت تقييدها راجيا أن تسهم في سد الفراغ في التراث الحبشي والدراسات الحبشية.

فقد سكت لسان الدهر عن ذكر أعلام هذا القطر دهورا، وعَطَل جيد الزمان من حلاهم طويلا، حتى آض2 شوط الإصلاح في هذا المضمار بطينا، وطريق النهضة حَزنا مستوعرا.

بل لست أغلو إذا قلت : لا يعلم أهل قطر

١- قبل الرماء تملأ الكنائن : مثل يضرب للاستعداد للأمر قبل حلوله. ونظيره من الأمثال : قبل الرمي يراش السهم.

٢- (آض) عند قوم ملحقة بـ (صار) من أخوات (كان) فتعمل عملها (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: ٢/ ٦٢)

أهملوا التأليف في تراجم أعيانهم وفرطوا في سير أعلامهم إلى حد يخجل منه كأهل هذا القطر الحبشي.
إذ لم يجد أعلام هذا القطر كاتبا أمينا ينقل سيرهم ولا مؤرخا وفيا يتتبع آثارهم ولا مؤسسات تعنى بتدوين جهودهم.
ثم لم يكن من دأب المصلحين في قطرنا ولا من ثقافة الناس في بلدنا أن يترجموا لأنفسهم بأقلامهم، بل يذهب بخيارهم واحدا تلو الآخر دون أن يعرف لهم أثر مسطور ولا خبر مزبور.
وإن النفس اليوم لتذهب حسرات أوقد غدت تراجم الرجال في هذا القطر الرحيب كالكلالة بلا أب يأبوها 3 ولا وريث يطالب بها.
فلم يكن فن تراجم الأعلام من ميادين المعرفة التي أولاها أهل الحبشة4 ومؤرخوها عناية واهتماماً، تأليفاً وتداولا. فذهبت تراجم كثيرين إلى غير رجعة، وضاع شطر كبير من تاريخ الإصلاح إلى غير أوبة ولا عجب إذن أن بقي ما يعرفه الناس من سير أهل هذا القطر منحصراً في ذكرى الملك العادل (النجاشي) و(بلال بن رباح)

5أوربما (بني أرفدة) ولعبهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أ: "دونكم بين أرفدة" أوأصحاب الفيل. ولا يكاد يجاوز هؤلاء وكأن ذاكرة التاريخ قُدّرت لهم محدودة، فلا تتجاوز بضعة أسماء ورموز.
ثم من المخجلات أن المثقفين من هذا القطر ناهيك عن عامة الناس ما يعرفونه عن تاريخ الدولة (الأموية) أو (العباسية) أو (العثمانية) أكثر مما يعرفونه عن قطرهم وتاريخ بلدانهم.
ومن البواعث على إظهار هذه السيرة العلمية ما ألاحظه من اتجاه مفزع بين أبناء قطرنا من الفتور في التعليم والتعلم.
بل قد أهدت لنا الأيام من يستطيل بلسانه أيستجهل علماءنا ويسفه تاريخ آبائنا ويستفسد صنائع مصلحينا.
وظلم ذوي القربي أشد مضاضة ---- على المرء من وقع الحسام المهند
إن توثيق سير الأعلام والعلماء والمصلحين يعد خطوة أساسية وضرورية نحو بناء ثقافة أصيلة، خاصة في ظل الفجوة الحضارية الكبيرة التي تفصلنا عن تراثنا العريق، مما ينعكس على حاضرنا المتأزم.

٣- يقال (ما له أب يأبوه) أي : يربيه. راجع المخصص لابن سيدة (٦ / ٢٣٣)
٤- روي في مسند الإمام أحمد (٢٠٠/٢٩): «الخلافة في قريش والحكم في الأنصار والدعوة في الحبشة».
والدعوة: هي الأذان كما في الفائق في غريب الحديث للزمخشري (١ / ٣٦٩) وتاج العروس للحافظ الزبيدي (١٩/ ٤٠٦)
واستدل بالحديث الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في (المهذب) على استحباب كون المؤذن حبشيا، وأقره النووي في شرحه. راجع الأخلاق المتبولية للشعراني (٤٨٩).
٥- لغة : ما يبل به الحلق من الماء واللبن. وكان رضي الله عنه ندي الصوت فصيحا ولم يكن ألثغ . وأما ما روي أنه كان يبدل الشين في «أشهد» سينا وقال له النبي (ص) « سينك عندالله شين» فهذا مما لا أصل له كما قال المزي وابن كثير. راجع (المقاصد الحسنة للسخاوي : ٢٩٤)

Nawafizmedia@gmail.com

وكذالـك يمثـل توثيـق هـذه السـير مفتاحًـا لفهـم ودراسـة تاريـخ الحبشـة، فهـو يشـكل أساسًا لإعـادة قـراءة تاريخنا واسـتيعابه بشـكل أعمـق. وهـذا هـو المدخـل الصحيـح لكتابـة تاريـخ الحبشـة في نظـري6

وتوثيق سـير الأعـلام ليس مجرد ذكـر لحقائق تاريخيـة، بـل هـو سـعي حثيـث لكشـف الطريـق الـذي سـلكه أولئـك الأعـلام في البنـاء والتطويـر. فمـن خـلال دراسـة سـير الرجـال، يمكننـا الاسـتفادة مـن تجـارب أسـلافنا في معالجـة أزماتنـا الفكريـة والعلميـة والأخلاقيـة، وتصحيـح مسـارنا الحـالي بإلهامنـا مـن مثالهـم. وهـو مـن أسـمى الأعـمال التـي تقـوم بهـا الأمم إذا أرادت أن تسـتنهض همـم أبنائهـا. 7. ولله در العلامـة الكوثـري (ت 1958) إذ يقـول :

" الأمـة الناهضـة تقـدر رجالهـا أحيـاء وأمواتـا ، فـلا تهمـل تراجمهـم بعـد وفاتهـم ، عرفانـا لجميلهـم ، وإسـداء إليهـم مـا يسـتحقونه مـن حسـن الأحدوثـة عـلى أعمالهـم ، وحضـا للأحياء عـلى اتخـاذ هـؤلاء أسـوة حسـنة في خدمـة الأمـة مـن شـتى النواحـي . بـل دراسـة تراجـم رجـال كل أمـة في كل عـصر ، حـق الدراسـة ، هـي المـرآة الصادقـة في تحديـد مركـز تلـك الأمـة في ذلـك العـصر نهوضـا ، وخمـودا ، وتدهـورا . ففـي تراجـم الرجـال تتمثـل حضـارة الأمـة وثقافتهـا، وتقدّمهـا وتأخرهـا. فـإذن هـي معيـار صـادق العيـار، يرجـو الصادقـون في خدمـة الأمـة إنصافهـا لهـم، ويخـاف المقصـرون حكمهـا عليهـم.

فـإذا لم يترجـم لهـؤلاء وهـؤلاء تضيـع مواضـع الأسـوة الحسـنة وسـوء الأحدوثـة مـن التاريـخ، فيصبـح الخـادم والهـادم عـلى حـد سـواء» 8

فعـلى حملـة الثقافـة في قطرنـا أن يهتمـوا بتراجـم أعيانهـم. وهـو في حـق من توفـرت فيـه الأدوات أولى مـن الاشـتغال بالنوافـل التـي لا يتعـدى نفعهـا، بـل لا يسـتبعد أن يعـد مـن فـروض الكفايـة.

وعـلى الأحيـاء مـن الأعـلام، أن يبـادروا إلى تدويـن سـيرهم، أو أن يسـتكتبوا مـن أهـل الأمانـة والأقـلام قبـل أن يضيـع زمانهـم وينقطـع خبرهـم. وقـد قـال العلامـة الحجـوي الفـاسي في معنـى ذالـك :

"فليتنبـه إخواننـا إلى الاعتنـاء بتراجـم الرجـال وإظهـار مظاهرهـم، فالأمـة برجالهـا، والسـهام بنصالهـا، وليترجـم النـاس لأنفسـهم مـا دامـت الأفـكار معرضـة عـن هـذه الواجبـة حتـى لا تضيـع حقائـق مـن حياتـم ربـما تتطلـب، فـلا توجـد وكـم ضاعـت مـن حقائـق باهمـال هـذا

٦- كان العلامة المختار السوسي المغربي (ت ١٩٦٣) يرى أن الوجه الصحيح لكتابة تاريخ الإسلام هو البدء بتاريخ رجالاته وأسرهم ثم مجتمعاتهم المحدودة فأقطارهم فالأمة الإسلامية جمعاء. راجع مقدمة تحقيق (المعسول)

٧- قال المؤرخ عبدالله محمد عنان في مقدمة كتابه (تراجم إسلامية شرقية وأندلسية) : «فسير العظماء الذاهبين زينة التاريخ القومي، والتاريخ القومي غذاء الشعور الوطني، ومن الماضي المجيد ومن سير الأبطال الذاهبين تستمد الشعوب الفتية كثيرا من عناصر القوة الأدبية والقدوة المثلى».

٨- مقدمة (الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة الهجرية) لزكي محمد مجاهد.

الفن لم يجد الأسف عليها شيئا»9
ولا ينبغي للمرء أن يثنيه عن هذا العمل ما يراه من خشية رياء أو ذكر للنفس؛ إذ هو لمصلحة الجماعة. وقد كُتب في الإخلاص في هذا الباب ما يُزيل عن العازف قلقه ووساوسه، وقد أشار إليه المحدث التليدي المغربي في (ذكرياته)، فأفاد 10.

فينبغي كذلك أن تجعل تراجم الأعلام مجالاً لدراسات طلبة العلوم وأصحاب الرسائل العلمية، إذ في ذلك حفظ لجهد السنين وصونٌ لتراث الأمة، ولا يسوغ أن تهدر الأوقات فيما قد طرق من العلوم واحتوى عليها التصنيف.
ومما يجدر التنبه له في هذا الباب، أن تُوجَّه أنظار المحسنين وأهل البذل والإحسان إلى العناية بتراجم العلماء والمصلحين. فإن في حفظ سيرهم حفاظًا على العلم والمعرفة، إذ هو إحياءٌ لرسالة الإصلاح التي خطوها بجهودهم وأعمالهم، وتبقى آثارها ماثلة في القلوب والنفوس.
الطروعاوي في سطور

أما المترجَم هاهنا فهو شيخنا ومفيدنا الشيخ الأستاذ المفسر عبد الله محمد حسن الطروعاوي الإريتري الأزهري.
كان رحمه الله من أوائل من قدر لي أن أحضر مجالسهم من شيوخ بلدي، وأسعدني زماني بمعرفتهم من أعيان قطري.
كنت في مفتتح الحياة وصدر الطلب - وأطيب العلم أوائله - أختلف إلى مجالسه في النحو والتفسير والفقه التي كان يبثها في مسجد محلتنا (مسجد على بن أبي طالب)، بحي (ماي شيهوت) (ማይ ጭሆት) في عاصمة اريتريا (أسمرة).
عرفته أول ما عرفته سنة ثمان وتسعين ومئة وألف للميلاد (1998)، وأنا إذ ذاك في غضارة الشباب ورُبان الحداثة11 قد أتى لي نحو ثلاث عشرة من السنين أوكان هو شيخا في ذيل الستين، أو قد ذرَّف على السبعين، وقد عبث الشيبُ بمفارقه ولهازمه12.
وكان آخر لقائي به رحمه الله في شهر (سبتمر) من شهور سنة (1999) عند مَبرق الصبح، يوم شددت مطايا الرحيل إلى «مصر الحبيبة» أقبلت يده في رحبة المسجد مودعاً والدعاءَ

٩- مقدمة الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (١/٩) :
١٠- راجع (ذكريات من حياتي) للتليدي. وأورد الشيخ بكر أبو زيد في (النظائر : ٢١- ٦٤) فصلا مطولا عن « العلماء الذين ترجموا لأنفسهم». والمستشرق الألماني (بروكلمان) له مقال بعنوان «ما صنف علماء العرب في أحوال أنفسهم» راجع (المنتقى من دراسات الستشرقين).
١١- ربان الحداثة : أول الشباب (شروح سقط الزند : ١ / ١١)
١٢- اللِّهْزِمَةُ : عظمٌ ناتِئٌ في اللَّحْي تحت الحَنَك وهو موضع اللكز. يقال : لهزمه الشيب ولهزم الشيب خديه. ومن الشواهد النحوية كما في شروح الألفية وفي (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : ٢٦٥ / ١٠)
وكنت أرى زيدا – كما قيل- سيدا ----- إذا إنه عبد القفا واللهازم

مستودعا، ثم لم يقض الله بعد ذاك اجتماعا.
واليوم وقد خنَّقتُ على الأربعين 13، وماء الشباب يغور غير معين، رشف رضاب يراع مبين، فتتابعت لواعج الحنين، وذكريات غبر عليها عقدان من السنين.
ارتسامات لطيفات ونسمات من جميل الذكريات أزفها عرفانا لجهود الشيخ الراحل وتخليدا لمآثره.
وارتشافات من الماضيات أسوقها وفاء لتاريخ العلم والثقافة في هذا البلد المغمور.
فعسى أن تأتي بعدنا أجيال لم تشهد الحياة العلمية التي كانت في بلدنا، فيكون لها وصلة ماضيها بمستقبلها واستنهاض هممها واستصراخ عزائمها.
كان أستاذنا الطروعاوي - عليه رحمة الباري- شخصية علمية نابضة، أجل من انتصب لتفسير القرآن الكريم في بلدنا بلا مدافعة، طويل النفس في تعاطيه، وقد فتق أكمامه وبلغ فيه أشده.
كان يرى أن النهضة الحقيقية لهذه الأمة تكمن في فهم كلام باريها، وعليه أدأب نفسه في إحياء مجالس التفسير في وقت كانت سوق هذا الفن كاسدة والحركة العلمية تكاد تكون قاصرة على لون واحد من العلوم: الفقه
ولم يكن له في بابته نظير فيمن رأيت أو وقفت على أخبارهم من شيوخ بلديي فقد ختم تفسير الكتاب العزيز أكثر من اثنتي عشرة ختمة على مدى ثلاثة عقود من الزمان أو يزيد، مستشعرا مسؤوليته أمام الله والتاريخ في حفظ التراث العلمي الإسلامي.
وهذا مقام لا يرام، ولا نكاد نجد له نظيرا في تراجم الحبشان.
وهو - عليه الرحمة- كان نموذجا للعالم الأزهري والمدرس الرباني. قد سمت همته فرحل إلى الأزهر الشريف في ريعان عمره ليفأم من معينه، فكرع من منهله العذب نحو عقد من الزمان حتى امتلأ وترع، ورجع إلى بلده أوائل السبعينيات القرن الماضي، فأخلق ثوب شبابه في نشر العلم دون ملل ولا فتور.
وكان - رحمه الله- بصيرا بالعربية، يلقي دروسه كلها بلسان العرب وقد برع فيه براعة تامة، في وقت كانت العجمة في الأواسط العلمية قد أخذت تضرب أطنابها، بل قد أناخت على المجتمع بكلكلها لتنطمس معالم العروبة.
وقد أثرى الحركة العلمية والثقافية في العاصمة (أسمرة) وتخرج به جم غفير من طلبة العلم، واغترف من معينه الطلاب صغارا وكبارا.
وأحسب أنه قد قام بواجب التدريس والنصح للمتعلمين أحسن قيام وترك في الناس أثرا، وأحدث في المجتمع تأثيرا أكسبه جميل الذكر ولسان الصدق.
ولم يزل في اشتغال وتدريس إلى أن انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء سنة (2011) بعد أن استعزَّ 14 عليه المرض و ابتلي بضروب من المكروه، ومرت عليه أمرار من بغي وعدوان

١٣- يقال : خنق فلان الأربعين : اذا كاد أن يبلغها , وهو مجاز (تاج العروس :٢٥/ ٢٦٩)
١٤- أي : اشتد (تاج العروس : ١٥/ ٢٢٦)

(والدهرُ كالنحل فيه الشهدُ والإبرُ).

فعطلت مجالس التفسير برحيله، وأضحت مجالس العلم جماما بذهابه، ثم لم نسمع بعد من يفري فريه في التفسير، ولا من يشق غباره في الصبر والجلد على التعليم.

فلست أدري له مثلا أُنْظِرُه ----- ومن يدانيه في شأو فقد بعدا 15

(والعاشية تُهيج الآبية) 16

أرجو أن تكون هذه الدراسة مفتاحًا لاستنهاض الهمم، وأن تكون حافزًا لمزيد من الأبحاث والتوثيقات التي تحفظ للأمة معالمها وأعلامها وأن تثير نقع الهمة، وتزيل عِثير المعرة وأن تكون سببا في إفاءتنا إلى كنوز أجدادنا.

وكم وددت لو ترك لنا أستاذنا الطروعاوي صفحات أو لمحات من حياته العلمية بقلمه. ثم كم وددت لو كان سبقني إلى كتابة سيرته بعض كبار الآخذين عنه ممن كانوا به أشد اتصالا وأطول مثافنة17، فيجنبني إقحام نفسي وإكلال عنسي.

ولكن كل ذلك لم يكن فاستحثت مطايا همتي، وشمرت عن ساعد الجد لأدلي بسُهمتي، وأخذت بالعزمات الشداد نفسي. وكنت قد تلكأت مدة في كتابة سيرته ولكن من الألطاف الإلهية أني التقيت على غير ميعاد بأخ فاضل كان قد عاشر الشيخ وعرفه عن قرب. التقينا في نهاية شهر ديسمبر من عام 2016 في القاهرة.

ولما تنازعنا الحديث أوصلنا شجون الشوق إلى الكلام عن شيخنا الطروعاوي. فأبثثته جلاجل نفسي وما كان يختلج في فؤادي من تدوين سيرة الشيخ فأمدني بمعلومات قيمة عن حياة الشيخ ومسيرته العلمية.

وكانت لحظات فرح غامر طربت لها طربة وهززت لها منكبي. وما أفتأ سادا يدي بغرز هذا الأخ الكريم أستزيده من أخبار الشيخ كلما عنَّ لي.

منهجي في عرض الدراسة

وقد نهجت في كتابة هذه الدراسة نهجا أدبيا ما بلغت اليه حيلتي وانتهى اليه قلمي، فحاشيتها من لغة الجرائد والمجلات ووشحتها بمستملح الألفاظ والكنايات وحليتها بأشطار الأبيات والمقتبسات وضمنتها مباحث جليلات ومسائل نفيسات.

بيد أني لست من خيل هذا الميدان، ولا من أبناء هذا الشان (أعني التاريخ والأعلام) بل لم تكن نفسي في سالف عهدي إلى التصنيف فيه طامحة ولا اليه بالجد نازعة.

ولكنني وجدت في دراستي لسيرة الطروعاوي أثرا من حيث تحول اهتماتي العلمية نحو التاريخ وتراجم الرجال والقراءة فيهما بشكل جدي، حتى أوقفني طول البحث

١٥- من رثاء طويل للصفدي في الحافظ العلائي (أعيان العصر وأعوان النصر : ٢٣٦/ ٢)

١٦- مثل يضرب في نشاط الرجل للأمر إذا رأي غيره يفعله وإن لم ينشط له قبل ذلك. وهو في النحو من المبتدآت التي وردت أمثالا لا تفارقها الابتدائية (شرح التسهيل: ٣١٩ / ١)

١٧- مثافنة : ملازمة. يقال : ثافن الرجل: لازمه حتى عرف باطن أمره. والثَفِنة هي الركبة.

والتنقيب على موارد لا إخال يهتدي إلى مثلها إلا المناقب الخراريت18.

وقد قسمت عملي في هذه الدراسة إلى فصول عدة تناولت فيها بعض الثوابت الهامة: نشأته ورحلته إلى الأزهر الشريف وجهوده في التفسير ونشر العلم وطلابه ومعاصروه.

وإن الدراسة لا تقف عند حدود ترجمة هذا العالم فحسب، بل تحاول أن تفيض عن ذلك لتصور مشاهد من الحياة الاجتماعية والعلمية في المجتمع الإريتري، فأسهبتُ في مواطن وجعلت القارئ يشهد بقلبه وسمعه أحوال بلدي وما كان عليه من أجواء علمية وثقافية خلت19.

وربما تشعب بي القول إلى ذكر الحوادث والوقائع، عسى أن يجد القارئ بين تلك السطور ما يعيد إليه طيفاً من ماضٍ كريم.

وختاما؛ لست أزعم في كل ما أكتبه السلامة من المغالط والهفوات؛ بل أدعو القراء من أبناء قطري والمهتمين من أبناء بلدي إلى ابداء الملاحظات البناءة20؛ فكما قيل (المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه) 21

فلعلي إن وجدت نشطة وفراغا؛ ولم تمد إلى شواغل الدهر باعا؛ أن أقوم بإصلاح ترجمة الشيخ وتهذيبها والتذييل عليها.

ونسأل الله أن يكتب لنا الأجر في عملنا، وأن يجعل لنا في سير أعلامنا نبراسًا نهتدي به في حياتنا العلمية والاجتماعية.

١٨- المناقب : جمع مِنقَب وهو كثير البحث عن الأشياء. الخراريت : جمع خريت وهو الدليل الماهر الحاذق.

١٩- ومن بديع ما وقفت عليه في هذا المعنى قول تقي الدين المقريزي (٨٤٥ ت) فيما نقله عنه تلميذه نجم الدين بن فهد (ت ٨٨٥) في مقدمة (اتحاف الورى بأخبار أم القري) :

«من أرخ فقد حاسب الأيام على عمره ومن كتب حوادث دهره فقد أشهد عصره من لم يكن من أهل عصره فهو يهدي إلى الفضلاء أعماراً ويبوء أسماعهم وأبصارهم دياراً ماكانت دياراً»

٢٠- قال الأديب محمود شاكر : «فإن جودة العلم لا تتكون إلا بجودة النقد، ولولا النقد لبطل كثير علم، ولاختلط الجهل بالعلم اختلاقا لا خلاص منه ولا حيلة فيه» (المتنبي: ٤٦٧)

٢١- القائل هو إبراهم بن العباس الصولي (ت ٢٤٣) من أعيان كتاب الإنشاء , وكاتب المعتصم والواثق والمتوكل. والعبارة المذكورة أوردها خير الدين الزركلي في ديباجة (الأعلام). ومن بلاغات الصولي هذا: الكتاب بلا تاريخ نكرة بلا معرفة وغفل بغير سمة. راجع (ثمرات الأوراق: ٣٣٦)